التواصل الحضاري بين المشرق والمغرب العربي من خلال الرحلة العياشية (ماء الموائد)

الطالب :بناهض عبد الكريم
اشراف الدكتور: والي دادة عبد الحكيم
كلية الآداب واللغات جامعة تلمسان

الملخص:
قامت الرحلة العربية بدور هام في إذابة الجليد بين شقي العالم الإسلامي مشرقه ومغربه ، وقد دونت هذه الرحلات خلاصة هذا الإلتقاء والتوافق وخصوصا الرحلات التي انطلقت من المغرب العربي والتي كانت وجهتها الحجاز(الرحلة الحجية) ،وتعد رحلة أبي سالم العياشي أحد أهم هذه الرحلات لتجسيدها مفهوم التواصل الحضاري بدقة من خلال حلقات العلم التي عقدها الرحالة بمختلف دول الشرق ،بالإضافة الى الإجازات العلمية التي حصل عليها أو التي أجازها لغيره،من منطلق العالم المنفتح الذي وضع الأسس العلمية مقياسا للحكم على مختلف الظواهر التي تعترضه.
الكلمات المفتاحية: الرحلة – الحج- التواصل –الحضارة –الإجازة.

The Summary

The Arabic trip played an important role in melting ice between two parts of the Islamic World in its eastern and western. Trips had made a summary about the connection and the agreements. Especially, the trips that came from the Northern African Countries to Ell- Hedjaz (the pilgrimage trip). The trip of Abe Salem Ell- Aiachi was one of the important trips that made the concept of the civilian connection, more exactly through circles of science which trippers were made it in different eastern countries. . In addition to this, the scientific journeys that he gained or he gave it for another from opened world; it put the scientific essential pillars as a measure to judge on the different phenomena which obstruct him.

مقدمة:

ارتبط وجود الناس على سطح الأرض بالحركة والتنقل فبفضلهما تمكن من الحصول على قوته والإبتعاد عن الأماكن الخطرة ، فهو في رحلة مستمرة يبحث من خلالها عن واقع أفضل لحياته في جميع مجالاتها . وبعد استقراره وتحسن ظروف حياته لم يتخل عن الرحلة والسفر وهذا يعود لغريزة إنسانية أصيلة وهي حب الإستكشاف واختراق الآفاق.

لقد أصبحت الرحلة مع مرور الزمن ضرورة تعتبر من أهم الوسائل التي أرخت لتاريخ البشرية وفتحت عيونه على عوالم أخرى ، وقد حرص الرحالة فيما بعد على تدوين خلاصة مشاهداتهم وما لاقوه أثناء أسفارهم ، فجاءت أعمالهم حافلة بالمعلومات التاريخية والحضارية ، نذكر من هؤلاء على سبيل المثال الرحالة –هيرودوت – وهوميروس -. ومن العرب اشتهر ابن بطوطة وابن خلدون. والإدريسي واليعقوبي والعبدري حتى غدت الرحلة فنا قائما له مبادئه وخصوصياته.

إن التراث العربي الجغرافي غني بالدراسات عن مختلف بقاع العالم ويرجع الفضل في ذالك إلى الرحلات التي قام بها العلماء من العرب والمسلمين ، إذ كرسوا حياتهم لتقصي الحقائق والمعلومات عن سائر البلدان فهي تعتبر قناة من قنوات التواصل بين الشعوب قديما وحديثا. وفي هذا الصدد نركز على نوع من الرحلات ألا وهو الرحلات المغاربية الحجازية ونختار منها رحلة أبي سالم العياشي – ماء الموائد- وفق إشكال مفاده: ماهو دور الرحلة العياشية في التواصل الحضاري مع المشرق العربي ؟.

مفهوم الرحلة ـ لغة واصطلاحا:

جاء في معجم مقاييس اللغة ما مفاده "رحل : الراء والحاء واللام أصل واحد يدل على مضي في سفر , يقال : ر يرحل رحلة , ورحل رحيل : ذو رحلة , إذا كان قويا على الرحلة , والرحلة الإرتحال , وقولهم

لما ابيض ظهره من الدواب : أرحل , فهو من هذا أيضا لا يشبه بالدابة التي عليها رحل , ويقال أرحلت الإبل = سمنت بعد هذا والراحلة : المركب من الابل سواء كان ذكرا أو أنثى.[1]
أما الجوهري في معجمه صحاح العربية عرفها كما يلي :
'رحل , الرحل : مسكن الرجل وما يستصحبه من الأثاث , والرحل أيضا رحل البعير ... والجمع رحال , ومنه قولهم في القذف بابن ملقي أرحل الركبان ... ورحلت البعير أرحلة رحلا , إذا شددت على ظهره الرحل , قال الأعشى :
رحلت سمية غدوة جمالها غضبي عليك فما تقول بجمالها ويقال رحلت له نفسي إذا صبرت على أذاه , ورحل فلان وارتحل وترحل بمعنى والاسم الرحيل , أبو عمر : الرحلة بالضم الوجه الذي تريده "[2] ، أما المفهوم الإصطلاحي فهي "مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباع المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة ،وقد يتعرض البعض فيها لوصف ما يراه من عادات وأخلاق وتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها او يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة أو يجمع بين كل هذا في آن واحد>>[3] وأما أحمد الفاضل فقدم تعريفا آخر حيث يقول" هي فن عريق من الفنون النثرية التي ضمنها كتابها أخبار اسفارهم وسياحتهم ومغامراتهم البرية والبحرية وما انطوى عليه من غرائب وعجائب وما قاسوه في ثنايا تلك الرحلات من الفظائع والأهوال وما شاهدوه في البلدان والأصقاع والمناطق التي دخلوها من أحوال ساكنيها وعاداتهم وتقاليدهم الإجتماعية ونظمهم السياسية ومظاهر عمرانهم "[4] وتنقسم الرحلة حسب الهدف المنشود الى : الرحلة السياحية- الرحلة العلمية – الرحلة الخيالية – الرحلة الفهرسية – الرحلة الإستكشافية – الرحلة الحجية أو الحجازية...الخ[5].

تعتبر الرحلات الحجازية أهم أنواع الرحلات لأن مقصدها كان أسمى ألا وهو أداء فريضة الحج ، وقد كان المغاربة سباقون إلى هذا النوع من الرحلة وأخذت شهرتها على ايديهم . فقبل الحديث عن الرحلة الحجازية وجب ان نعرف ماهو الحجاز" الحجاز معناه الحد او الفصل ، ولفظ الحجاز عرف قديما منذ أن كان سكان شبه الجزيرة العربية يعيشون أشتاتا يعمهم التفكك السياسي ولا تجمعهم دولة ،فهم مجموعة من القبائل إستقرت في مناطق معينة غير واضحة الحدود مع تمتع بعض مدنه بالإستقرار مثل مكة والمدينة ...." [6].

وللحجاز مكانة متميزة في تاريخ الإسلام،"ففيه ظهر الإسلام وتثبتت أركان دولته واستقرت قاعدته وفيه عاش الرسول صلى الله عليه وسلم كل حياته وقضى الخمسين سنة الأولى من عمره في مكة المكرمة حين نزل عليه الوحي ...ثم أصبحت قاعدة الإسلام الأولى ومركز المسلمين ومنها بدأت الدولة تتوسع حتى شملت الحجاز ...وفي الحجاز تقع الكعبة التي يحج إليها المسلمون من شتى بقاع العالم .." [7] لهذه الأسباب اكتست أرض الحجاز هذه الأهمية بالنسبة للمسلمين ،فالرابط الروحي المتمثل في آداء فريضة الحج كان محفزا على هذا النوع من الرحلات.إذن فالرحلة الحجازية هي التي يكون"الباعث إليها زيارة البقاع المقدسة وعلى رأسها مكة والمدينة مهبط الوحي بالإضافة إلى زيارة المسجد الأقصى وزيارة الأولياء والصالحين ، مما يدفعهم ذالك إلى تسجيل ما يشاهدونه وما يرونه خلال السفر ويصوغون ذالك في قوالب فنية تخلد رحلاتهم وذكرياتهم"[8]، فالحج هو المحرك لهذه الرحلة وأثناء ذالك يحتك الرحالة بالعلماء ويزور الصالحين.

أبو سالم العياشي ورحلته ماء الموائد:

يعد أبا سالم العياشي من أبرز الشخصيات المغاربية التي ذاع صيتها قديما وحديثا فهو"أبو سالم عبد الله بن محمد العياشي ولد في أواخر شهر شعبان 1037هـ/1628م في قبيلة آيت عياش وهي قبيلة بربرية تتاخم بلاد الصحراء من أحواز سجلماسة ، ويعتبر أبو سالم العياشي من أبرز علماء الأسرة العياشية فهو الأديب والرحالة والفقيه والصوفي والداعية الى تعاليم الإسلام السمحة والمحارب للبدع التي استشرت في المغرب في تلك الفترة ، تعلم بالزاوية العياشية ثم التحق بالزاوية الناصرية ثم جامع القرويين ،من أشهر مؤلفاته: إتحاف الاخلاء بإجازات المشائخ الإجلاء واقتفاء الأثر بعد ذهاب الأثر-وقد قام برحلات ثلاث :الأولى في شهر ربيع النبوي 1053هـ/1643م والثانية أواخر ربيع النبوي 1064هـ/1658م والثالثة والأخيرة والموسومة:ماء الموائد وهي أفضل رحلاته دون فيها خلاصة تجربته في الحجاز"[9].وهي تضم شتى أصناف العلوم والمعارف.

وقد كان خط سير الرحلة حيث "انطلق من سجلماسة مرورا بالمغرب ثم الجنوب الجزائري فالجنوب التونسي فطرابلس فالقاهرة فالحرمين الشريفين ، ثم انتقل بعد ذالك الى أهم المدن الشامية غزة- الرملة – بيت المقدس – الخليل "[10]، يقول العلامة عبد الهادي التازي "وتعد رحلة العياشي من أهم الرحلات المغربية وأكثرها إنتشارا لأنها أكثر مادة وأكثر تنوعا ، وقد طفق الرحالون من اللاحقين ينقلون عنها دون أن يعودوا إلى مصادر أخرى ..." [11]،وهذا ما أكد عليه في بداية رحلته حيث أقر بأنها لن تكون مجرد وسيلة للترفيه فقط وإنما ميدان خصب لشتى المعارف حيث يقول "وقصدي إن شاء الله من كتابة هذه الرحلة أن تكون كتاب علم لا كتاب سمر وفكاهة وإن وجد الأمران فيهما معا فذالك أدعى لنشاط الناظر فيها "[12]، وقد راعى في رحلته مستوى القارئ وطموحه العلمي وهذا هو السر وراء التنوع المعرفي لهذه الرحلة.

كان وراء هذه الرحلة رغبة قوية لدى أبي سالم لزيارة البقاع المقدسة رغم ألم الغربة والفراق الذي قد يعانيه أثناء ذالك فهو يعزي نفسه في بداية الرحلة بأبيات شعرية حيث يقول "

ذريني ارد ماء المفاوز آجنا حيث ماء للكرام معين

دعيني أكثر حاسديك برحلة إلى بلد فيها الرسول دفين"[13]

وإن من بين ما وضعه هدفا لرحلته»ما يشترك في معرفته عام الحاج وخاصهم من أوصاف المسالك وتعداد المراحل وأسماء البلدان وما يضاهي ذالك مما لا تطمح إليه عيون الفضل وترتاح لذكرهم أهل النبل من لقاء المشائخ الفضلاء وحاضرة الأدباء والنبلاء ومباحثة الأذكياء وزيارة الأتقياء"[14]

دور الرحلة العياشية في التواصل الحضاري مع المشرق:

تعتبر الرحلة جسر للتواصل مع الآخر سواء كان هذا الآخر ينتمي إلى الحضارة نفسها أو إلى حضارة مغايرة فهي وثيقة أدبية تعرض بالوصف والمعاينة أحوال المجتمعات التي ارتحل صاحب الرحلة وتكشف عن طبيعة الوعي الإنساني بالآخر.

إن مصطلح التواصل الحضاري ينقسم الى شقين الأول التواصل : والذي نقصد به ربط علاقات بين شعوب مختلفة أو بين أفراد الشعب الواحد عن طريق الحوار والثاني الحضاري:نسبة الى الحضارة التي مقياس رقي الدولة ، والحضارات البشرية» سلسلة متصلة الحلقات تأخذ كل واحدة منها بعضد الأخرى ولا يمكن ان تنفصل هذه الحلقات وإلا لوقف العلم وانتهى إلى حيث ينتهي الإتصال بينهما وذالك خلافا لما يراه شبنجلر من أن كل ثقافة في تركيب عضوي من نوع خاص لا صلة له بالثقافات التي جاءت قبله أو الثقافات التي تجيء بعده" [15].فانفتاح الحضارة على نفسها وغيرها ينفي عنها التقوقع والتعصب ،فكل حضارة تستفيد من السابقة لها . فأفراد الحضارة الإسلامية سابقا بنوا علاقاتهم مع الحضارات الأخرى على أساس التعارف الذي يتضمن تجاوز الذات من اجل بناء الجسور والتواصل مع الآخرين ، فهذه نظرة شمولية لعملية التواصل الحضاري في إطارها العالمي وقد أعطت الحضارة الإسلامية أنموذجا له من خلال انفتاحها على الحضارات المجاورة.

وهنا ينبغي الإشارة إلى نقطة مهمة وهي أن اتساع رقعة الحضارة العربية الإسلامية وخاصة في الجزء الغربي اي المغرب العربي،إذ أن هذه المنطقة كانت لاحقة في الفتح الإسلامي والفاتحون الأوائل عندما جاءوا لهذه المنطقة تواصلوا مع ثقافة مختلفة وهي ثقافة السكان الأصليين الأمازيغ ، فقاموا بتعريبهم وأصبحت المنطقة فيما بعد قطبا حضاريا متميزا ..مما يجعل حتمية التواصل الحضاري بين المغرب والمشرق ضرورة ملحة حتى يتسنى تذليل نقاط الاختلاف بينهما. "ولا ريب أن الرحلات كانت بمثابة مصادر شاملة سجلت فيها جوانب مختلفة فيها يخص الجوانب الحضارية المختلفة على أزمنة متتالية،فالرحلة تتطلب اتساع المعارف وتنوعها،وهي تستند الى التاريخ ،ورصد المظاهر الإجتماعية والإقتصادية والسياسية غير المألوفة ،فهي ليست أداة معرفية فحسب بل تتعداها الى مهام حضارية،"[16]ومن النقاط التي ساهمت في التواصل الحضاري مع المشرق في الرحلة العياشية نذكر

الفكر النقدي لدى العياشي :

أثناء اتصال العياشي بالمراكز العلمية على غرار مصر المدينة ..أثار انتباهه مجموعة من السلوكيات والمعتقدات الباطلة ،فيحاول رد الأمور الى نصابها وخصوصا في قضايا الشريعة الإسلامية حيث يهتم بصحة الأحاديث التي من خلالها تصوب سلوكات الناس وفقها[17]،فقد حرص على رد الكثير

من المعتقدات الخاطئة والأفكار الضالة وفق منظور سني معتدل سواء ما تعلق منها بالديني او الاجتماعي او الاقتصادي ، رغبة منه في توحيد الصورة بكل موضوعية . وعلى هذا الأساس لم يكن النقد الذي وجهه العياشي لأجل النقد فقط بل كان الغرض إبراز نقاط الخلل في المجتمع الإسلامي بغرض إصلاحها ،وهذا انطلاقا من رؤيته للعالم الإسلامي وكونه تحت لواء الاسلام الذي يجمع ولا يفرق.

وقد لجأ الرحالة في بعض الأحيان الى ما يسمى بالسخرية في مقام انتقادهم للظواهر المختلفة،أو العين الساخرة ،وهي "كمحسن بلاغي واستراتيجية خطابية تجعل من المحتمل أهم إنشغالاتها ،وللإجابة عن كيفية تبين المحتمل في الخطاب الساخرنشير مع سعيد علوش إلى أن السخرية تتمثل في منهج جدلي يعتمد على الإستفهام بمفهومه البلاغي ،أو هي التعبير بلغة ذات نزوع متعارض"[18] ،فمثلا يوظف العياشي هذا المحسن البلاغي فيقول حين خروجه من بلاد اوقروت "ولولا أن هذه القرية في مثل هذه المفازة ما حسن تسميتها قرية ،إذ ليس فيها الا نخلات معدودة قد يبس أكثرها ،وبقيت جدرات تسفي عليها الرياح وحجرات من جريد النخل ،وعرش من الجريد مرفوعة من الأرض بمقدار القامة يبس فيها ثمر ذالك النخل ،إذ لا يقدرون على وضعه على الأرض لئلا يغلب عليه الرمل فيذهب أدراج الرياح..." [19]،فتعبيره الساخر لا يعبر عن ازدراء للمكان لكنه أسلوب يغلب عليه الطابع الأدبي المشوق ليعطي صورة عن المكان بوضوح.

أ-نقد المعتقدات الدينية:

لقد دون العياشي في رحلته أفكار تتناسب مع شخصيته العالمة الورعة ، فانتقد الضلالات التي سادت المجتمع الإسلامي شرقا وغربا رغبة منه في توحيد الرؤى الدينية بين المشرق والمغرب مما يفتح آفاقا أوسع للتواصل بين القطبين ، نذكر على سبيل المثال مشهدا أثار انتباهه وهو بالديار التونسية حيث يقول"وماتت في الركب في تلك الليلة امرأة موسرة من أهل تونس وكانت لها محفة رفيعة تحمل فيها فلما ماتت أوسعوا في حفر قبرها ودفنوها بمحفتها وذالك غلو وبدعة وتضييع مال ، فان المحفة لها مال وقيمة وحضر أمير تونس وكبراؤهم ولم ينكر ذالك أحد"[20]، ويقر بأن هذه البدع ليست حكرا على مجتمع معين او بيئة معينة ،فلم يقدم أبا اسالم جهة من جهات العالم الاسلامي التي شملتها رحلته باعتبارها مركزا صحيحا ومثالا صافيا للعلم والعمل أي انه لم يتحيز لمنطقة بل بدا متحليا بموضوعية التي ورائها شخصية الرحالة العالم[21].

ويورد بعض جهالات العامة حيث يقول: "حكى لي بعض المجاورين أنه وُجد في في بعض المواسم رجل مع امرأة في الحرم الشريف فحُملا إلى الحاكم فشهدت البينة أنها زوجته وقيل له: ما حملك على ما فعلت؟ فقال له: إنه لا ولد لنا فرجوت أن تحمل المرأة ببركة هذا الحرم فعُذر بجهله ولم يعاقب"[22] ،مما يعتبره تعد صريح على أحد الحدود وتساهلا في تطبيق الاحكام الشرعية ،وفي موضع آخر ينتقد بعض الائمة وجهلهم بقواعد خطبة الجمعة "....ودخلنا للمدينة لحضور صلاة الجمعة وصلينا بجامع يسمى جامع المالكية ،وخطب الخطيب بخطبة أكثر فيها اللحن والخطأ والتحريف والتقديم والتأخير مع إدغام أكثر حروفها حتى كأنها همهمة ،فكنت أتخوف ألا تصح لنا جمعة معه ان كانت صلاته كخطبته"[23]

والملاحظ أن العياشي حريص على ذكر الأسباب الموضوعية وراء الإنتقادات التي يوجهها، ليس أن الغرض المرجو هو التقويم لا مجرد النقد فقط، وهذا يجعل منه شخصية مرنة يقبل الناس على شتى أفكارها بكل أريحية.

النقد الاجتماعي في الرحلة العياشية كحلقة تواصل:

كان للملمح الاجتماعي في الرحلة العياشية النصيب الأكبر بحكم معاشرة العياشي لسكان المشرق وأهل الحجاز خصوصا ،ويورد خصائص بعض المجتمعات من خلال معاينته لها، فيقول عن المجتمع المصري"وبالجملة فمصر أم البلاد شرقا وغربا لا تستغرب شيئا مما يحكى منها من خير

أو شر و مصداق ذالك ما حدثنيه بعض أصحابنا من التجارفي سنة أربعة وستين قال :لما دخلت مصر في حدود الخمسين سكنت بعض الوكائل وكان من قدر الله ان اجتمعنا في محل واحد جماعة من فلان وفلان تجار وفلان طالب علم وفلان ممن يليق الى طريق الفقر وفلان ممن يميل إلى المجون...فيقول التاجر :ما رأينا مثل هذا البلد في التجارة فأهلها كلهم تجار ،ويحكي خلال ذالك حكاية ما شاهد ،ويقول الفقيه مثل ذالك والفقير مصل ذالك وذو المجون مثل ذالك ،وما ذالك إلا كثرة أجناس الناس فيها فمن طلب جنسا وجد

منه فوق ما يظن ،فيظن أن أهل البلد كلهم كذالك"[24]،وقد مكث في الحجاز لفترة لا بأس بها، وقد كان حريصاً على الإشارة إلى الخلل الذي يعاينه حتى لو كان بسيطا، وقد أورد بعض العادات الاجتماعية المستحبة لسكان الحجاز كقوله: "مما أنعم الله به على أهل الحجاز هذا البُن لأنهم ضعفاء فقراء في الغالب والناس يقدمون عليهم من الآفاق والإنسان لابد له من طعام يقدمه لمن دخل عليه ولا قدرة لهم على تكلف ذلك لكل جديد يدخل عليهم..." [25] ، هذه الملاحظة تدل على احتكاك العياشي للمجتمع الحجازي وغوصه في أعماقه.

ويتحدث العياشي عن المرأة المدينية وميولها نحو البذخ والترف فيقول: "ولقد أخبرت أن للنساء عليهم عادة يسمونها الشخشخة وهو ما تشتري به المرأة ما تشتهيه من الأزهار فربما بلغ ذلك ريالاً كل يوم"[26]، وهو يعيب عليها إسرافها في الزينة وفي الشكليات، ومن الآفات الاجتماعية الخطيرة التي سجلها العياشي نذكر آفة الرشوة التي وجدت في الوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي ساد خلال القرن الحادي عشر والتي مست جميع المهن بما فيها المهن الشرعية حيث يقول: "والحاصل أن المناصب الشرعية كلها في البلاد المشرقية حجازا ومصراً وشاما من إمامة وخطابة وآذان وإقامة وقضاء وفتوى وشهادة.. إنما تُنال بالشراء من الولاة"[27]، والواقع أن رحلة العياشي تقدم فكرة واضحة عن الواقع الاجتماعي في العالم الإسلامي مشرقه ومغربه خلال القرن الحادي عشر.

التواصل الصوفي في الرحلة العياشية:

يعد أبا سالم العياشي فقيهاً عالماً متّبعاً نهج التصوف وهذا يعود إلى نشأته الصوفية التي حصل عليها من الزاوية العياشية "وتقع الزاوية العياشية أو زاوية سيدي حمزة كما تسمى اليوم على ضفاف أحد روافد نهر زير جنوبي مدينة تيدلت، والملاحظ طبيعياً أنها محصنة بحدود جبلية تمثلها من الشمال الغربي السفوح الجنوبية الشرقية لجبل العياشي ومن الجنوب الغربي قمة جبل أفداي... أما طريقة الزاوية العياشية فكانت شاذلية وشيوخ محمد بن أبي بكر كلهم شاذليون وقد تأصلت هذه المبادئ لدى أبناء الزاوية العياشية وعلى رأسهم أبو سالم"[28]، الذي سار على نهج الزاوية في طريقتها الصوفية ولم يحد عنه.

تتجلى شخصية أبي سالم المتصوفة في كونه كان حرصاً على تنقية النفس والرقي بها إلى معالم الكمال والطهر وأبو سالم "متصوف قوي الشخصية له نظرية خاصة في الحياة وفي السعي إلى المناصب العليا وفي المال، وبعض هذه الاتجاهات واضح في سلوكه ومن خلال بعض رسائله ومؤلفاته ومن ذلك ما كتب إلى صديقه وتلميذه عثمان بن علي اليوسي من طرابلس واعظاً إياه بقوله: "إياك والاهتمام بالرزق والخوف من الخلق فإنهما أصل كل وهن في الدين وضعف في اليقين، فإن الأول يوجب الشك في المقدور وفتور في النفس..." [29] ، والعياشي يراعي في سلوكه الصوفي موافقة السنة رغبة منه في توحيد الرؤى حول الغاية من التصوف وجعل الكتاب والسنة مصدر التشريع ومحل الاتفاق وعدم الاحتكام إلى الأهواء المختلفة.

قام أبو سالم العياشي بدور إيجابي في الحركة الفكرية بين المغرب والمشرق "وقد مكنته تجاربه من جمع معلومات متنوعة عن أحوال البلدان التي زارها اجتماعياً وتاريخاً إلى جانب الحياة الفكرية التي مثلت المحور الأساسي في علاقته المشرقية"[30]، ويتضح ذلك من خلال حرص أبي سالم على معرفة كل إنتاج جديد في ميدان التأليف فكان أول من أدخل كتاب (نسيم الرياض في شرح شفا القاضي عياض) إلى المغرب بعد أن وعد المثقفين والمهتمين المغاربة بإحضاره"، في ربط لأواصر المعرفة بين القطرين مشرقه ومغربه.

إجازات أبي سالم ودرورها في التواصل الحضاري

كان من اهتمامات أبي سالم أن يحصل على أكبر قدر من الإجازات من العلماء المشارقة والمغاربة ،والإجازةهي "إحدى طرق التحمل والرواية عند المحدثين من أهل العلم لذا تنوعت في معناها وأدائها باعتبارات لا تخرجها عن معنى تحمل العلم عن الشيوخ في الجملة "[31]وهي في اصطلاح العلماء إذن المحدث للطالب بأن يروي عنه كتابا من كتب الحديث أو غيرها من دون أن يسمع منه أو يقرأعليه وهذا أصل معناها عند الاطلاق "[32]،ولا يصل طالب العلم لهذه المرتبة إلا بعد مجالسة العلماء لفترة طويلة يثبت من خلالها جدارته وأحقيته بالإجازة ،فهي شهادة اعتراف بالقدرة العلم والإجازة لفظا ومعنى "للحفاظ على الإسناد واتصاله وتسلسل رجاله والإنتساب لكتب السنة وغيرها ،فكانت معيارا لذالك

وعنوانا على الطبقات واللقي والمعاصرة وغيرها من تحاسين الرواية وأفانين الاجازة .." [33]،فهي تعطي لطالب العلم الحق في الإجتهاد في المسائل الفقهية .

كان مما يسعى إليه طالب العلم قديما هو الإجازة ،فكانت في الصدر الإول مقرونة بالعلم حلا وترحالا فلا يذكر العلم إلا ذكرت ،ولا يعرف العالم إلا اذا عرفها ،ولا يعرف الحق من الباطل إلا إذا صح سندها ..." [34]،ففضلها يكمن في إثبات السند والتأكد من صحة المرويات ومالكها يملك الأهلية للقيام بهذه المهمة الجليلة .

فهي وسيلة من وسائل الأخذ والتحمل تكون بأشكال مختلفة شفوية وكتابية عامة وخاصة نثرية ونظمية ، ولا تنال إلابعد استيفاء شروطها أملا في ربط الصلات الثقلفية بين الشرق والغرب ،ولأن ذالك يعتبر مظهرا من مظاهر النبوغ العلمي كانت الإجازات التي تحصل عليها كبيرة خصص لها فيما بعد كتابا خاصا سماه اتحاف الأخلاء بإجازات المشائخ الأجلاء ، وسوف نستعرض أهم هذه الإجازات التي حصل عليها العياشي .

نذكر من الشيوخ المشارقة الذين أجازوا أبا سالم الشيخ **إبراهيم بن حسن الكوراني الشهرزوري** وكان له اهتمام بالغ بالرواية وحفظ الأسانيد واستجاز محمد بن رسول الشهرزوري من أئمة الفقه المالكي بالمدينة المنورة"[35]كما أخذ عن "أحمد بابا التمبكتي ذكر العياشي أنه لقيه ببسكرة ولقنه الذكر وأجازه كما لقيه بالأسكندرية، كما أجازه الشيخ ياسين بن محمد بن غرس الدين الشافعي الأنصاري الخليلي من المدينة المنورة ، وعمر بن عبد القادر المشرقي وهناك العديد من الإجازات لعلماء مشارقة ومغاربة لا يتسع المقام لذكرهم"[36].

هذه الإجازات المختلفة التي حصل عليها العياشي تنم عن رغبة في التوفيق بين علوم المشرق بحكم أسبقيته الحضارية و علوم المغرب باعتبارها منطقة لحقت الركب الحضاري ،فهو لايرى تعارضا بينهما بل يرى التكامل في التوفيق بينهما، وهذا ما يفتح الطريق أمام المثقفين في القطرين الى انتهاج نفس الاسلوب في التعامل .وقد أجاز العياشي العديد من طلبة العلم خاصة في المدينة ومصر.

دور أبي سالم في ربط الصلات بين المشرق والمغرب:

قام أبو سالم بدور إيجابي في حركة فكرية بين المغرب والمشرق وأضاف أثرا طيبا الى سلسلة العلاقات الثقافية بين البلدان الاسلامية المختلفة ،وقد مكنته تجاربه من جمع معلومات مختلفة عن أحوال البلدان التي زارها اجتماعيا وإقتضاديا وثقافيا ،إلى جانب الحياة الفكرية التي مثلت المحور الأساسي في علاقاته المشرقية خلال القرن 17 م ونستطيع أن نبرز مجالات هذه المشاركة من خلال الأمثلة التالية:

أ-حرص أبو سالم على معرفة كل انتاج أدبي جديد في ميدان التأليف ،فكان أول من أدخل كتاب **"نسيم الرياض في شرح شفا القاضي عياض"**،بعد أن وعد المثقفين والمهتمين المغاربة بإحضاره وسهر بنفسه على استنساخه.

ب- نقل أبو سالم عددا من رسائل الشيخ إبراهيم الكوراني في مسألة الكسب ،وقد أثارت مناقشات طويلة بين علماء فاس والمدينة المنورة ،وألف من أجل الرد على أقوال الشيخ الكوراني ،كل من الشيخ محمد بن عبد القادر الفاسي وولد عمه السيد المهدي بن أحمد الفاسي وتلطفا في إظهار مخالفتهما لأرائه ،بينما تشدد بعض المغاربة وانتصروا لآراء علماء فاس"

ج- أثارت مسألة التبغ ضجة في المغرب منذ مستهل القرن 17م،فسجل أبو سالم الكلام حول الموضوع ،فالشيخ صفي الدين القشاشي أحد رجال العلم بالمدينة ،يميل إلى كراهية استعمال الدخان ،في حين أن الشيخ عبد الكريم الفكون القسنطيني يتصدى لمن يميل الى الإباحة وقد ألف من أجل ذالك رسالة سماها (محدد السنان في نحور إخوان الدخان)." [37]هذا الأخذ والرد في المسائل العلمية والفقهية المثارة آنذاك يدل على نشاط فكري كان للرحالة يد طولى فيها ،فأبو سالم كان حريصا على غلق الفجوة الثقافية بين المشرق والمغرب العربي ن خلال مراسالاته ومناظراته المختلفة.

ما يمكن استخلاصه بعد استعراض الدور الذي قام به أبو سالم العياشي في التواصل الحضاري مع المشرق مايلي:

أن الرحلات المغاربية الحجازية كانت بحق جسرا عبرت من خلاله ثقافة المغرب الى المشرق العربي ونقلت ثقافة المشرق إلى المغرب العربي، فقد مدت جسور التواصل بين شقي العالم الإسلامي.

لقد رأى أبا سالم العياشي أنه من الواجب على العالم الحقيقي أن يطلب العلم من معينه الأصلي ومن الشيوخ ذوي السبق ، فكانت رحلته حافلة بالمسائل العلمية المختلفة ،حيث جمع بين علوم المغاربة والمشارقة خصوصا في المجال الفقهي والصوفي، حتى أنه خصص من وقته للتدريس في البلاد المشرقية،في تواصل حضاري حقيقي بين المغرب والمشرق العربي.وما الإيجازات التي أجازها لغيره خير اثبات لهذا الدور.

أن الرحلة العياشية حافلة بالعديد من المسائل العلمية المختلفة التي تحتاج الى من يميط اللثام عنها ،والمجال مفتوحا أمام الباحثين للقيام بهذا الدور.

هوامش الدراسة :

1 - أبو الحسن احمد ابن فارس-مقاييس اللغة- تحقيق عبد السلام محمد هارون-دار الفكر –دط –دت مادة رحل.

2 - أبو نصر الجوهري – الصحاح- تحقيق أحمد عبد الغفور عطار- دار العالم للملايين – بيروت –دط 1987- ج6 مادة رحل.

3 - مجدي وهبة وكامل المهندس- معجم المصطلحات الأدبية في اللغة والأدب- مكتبة لبنان – ط2 1984- ص17.

4 - أحمد الفاضل – تاريخ وعصور الأدب العربي – دار الفكر اللبناني -

5 - عواطف يوسف نواب – الرحلات المغربية والأندلسية- الرياض – دط -1996ص 30.

6 - ينظرحسين نصار – أدب الرحلة – الشركة المصرية العالمية للكتاب- ط1 1990.

7 - صالح أحمد العلي – الحجاز في صدر الإسلام – مؤسسة الرسالة –بيروت – ط1- 1990ص 07

8 - مرجع نفسه ص 08.

9 - أبو سالم العياشي- اتحاف الأخلاء بإجازات المشائخ الأجلاء- دار الغرب الإسلامي – ط1 1999م- ص25.

10 - مصدر سابق ص:25.

11- ينظر عبد الهادي التازي-رحلة الرحلات-

12- أبو سالم العياشي- الرحلة العياشية–تحقيق سعيد الفاضلي –دار السويدي للنشر والتوزيع-الإمارات-ط1 2006-ص02.

13 - المصدر نفسه ص:52-53.

14 - المصدر نفسه ص:53.

15 - سعيد الدين صالح- التواصل الحضاري والحفاظ عاى الذاتية- دار الصحوة للنشر والتوزيع- ط1 2005 ص:24-25.

16 - ينظر عواطف بنت محمد يوسف نواب-كتب الرحلات في المغرب الاقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز-دار الملك عبد العزيز-الرياض 2008-ص 20-21.

17 - ينظر الحسن الشاهدي- ادب الرحلة بالمغرب في العهدالمريني- منشورات هكاظ- ج1 دط دت ص 587.

18 - عبد النبي ذاكر- العين الساخرة – المركز المغربي للتوثيق والبحث في أدب الرحلة – ط1- مارس 2000م- ص :10-11.

19 - ابوسالم العياشي- الرحلة العياشية –ج1 ص 107.

20 - المصدرالسابق- ص :15.

21 - المصدر نفسه ص 15.

22 - المصدر نفسه ص 18.

23 - المصدر نفسه –ص-114.

24 - مصدر سابق-ص :222.

25 - المصدر نفسه ص:122.

26 - المصدر السابق ص: 22

27 - المصدر نفسه282.

28 - أبو سالم العياشي – اقتفاء الاثر بعد ذهاب الاثر – تحقيق نفيسة الذهبي- منشورات كلية الاداب والعلوم- الرباط – ط1- 1996م- ص 21- 22.

29 - المصدرالسابق ص56.

30 - أبو سالم العياشي – الرحلة العياشية ص: 115.

31 - ذياب بن سعد آل حمدان الغامدي- الوجازة في الاثبات والاجازة –فهرسة الملك فهد الوطنبة – الطائف –دط –1428ه-ص.21

32 - المرجع نفسه –ص .22

33 - المرجع نفسه –ص 22.

34 - المرجع نفسه ص 27.

35 - ابو سالم العياشي – اتحاف الاخلاء ياجازات المشائخ الاجلاء- ص 68 69

36 - المصدر نفسه ص:69.

37 - ينظر ابو سالم العياشي- اقتفاء الاثر بعد ذهاب الاثر –ص 57-58-59.